

نشر البحث بحولية كلية دار العلوم، جامعة الفيوم،
العدد الخامس والعشرون، الجزء الثاني

صورة المرأة/الخطيئة لدى حمزة شحاتة موقف فلسفي، أم رؤية رومانتيكية

د. محمد بن حمود محمد حبيبي

أستاذ مساعد الأدب العربي بقسم اللغة العربية بكلية المعلمين
بجامعة جازان

يسعى هذا البحث إلى مراجعة صورة المرأة ، في إطار التيار الرومانتيكي ، بوصفه السياق الذي تأثرت به تصورات حمزة شحاتة ؛ ويسعى مع ذلك ، إلى الكشف عن مدى وجود خصوصية فلسفية بموقف حمزة من المرأة والحياة ، تختلف عن معاصريه من الشعراء الذين تأثرت رؤاهم بالتيار الرومانتيكي . ومن ثم يصل البحث بنهايته ، إلى النتيجة التي يراها مختلفة ، عما توصلت إليه دراسات سابقة ، تناولت صورة المرأة لدى حمزة شحاتة .

إن إعادة النظر بمفهوم المرأة في أدب حمزة شحاتة* الشعري والنثري . المفهوم الذي يستوعب إلى جانب الحبيبة ، المرأة القريبة . من شأنه أن يعيد التوازن لنظرات سابقة غير مكتملة ، شُخِّصَ من خلالها موقف حمزة شحاتة من المرأة ، وفق ما اقتضته مناهج البحث وغايات الباحثين ، الذين تطرقوا لهذه القضية بأدب حمزة شحاتة .

ومع الأهمية الكبرى لما يمكن أن تضيفه إعادة النظر تلك ، لموقف شحاتة وفق ذلك المنظور الشمولي - إلا أن هذا البحث منصب ، على مراجعة النظرة لصورة المرأة من خلال شعر شحاتة المتعلق . على وجه التحديد . بوصف المرأة / الشريك في تجربة الحب(الحبيبة) . وذلك بغض النظر عن مفهوم المرأة عامة في شعره ، وبغض النظر عن جوانب صورتها المستقاة من أدبه النثري ، أو المستخلصة من بيانات سيرة حمزة شحاتة الشخصية ، التي دونها بقلمه ، أو جمعها عنه غيره من الدارسين .

صورة المرأة المكرسة عن حمزة شحاتة

ظلت الفكرة المكرسة عن موقف حمزة شحاتة من المرأة ، متمثلةً في الصورة السوداوية المتشائمة من المرأة باعتبارها قرينة الخطيئة . وظل المعجم الأوضح من تلك الصورة ، المعجم المشبع بمفردات الشك ، والخديعة ، والغواية ، والنفاق ، والتخوين ، والتقليل من عناصر الثقة ، والندرة التامة للحظات وقوف شحاتة عند الجوانب الإيجابية في شخصية المرأة .

ويكفي النظر لأنموذجين من النماذج . التي جُمع عدد منها بملحق في نهاية البحث . لنرى طبيعة هذه الصورة ، يقول شحاتة(١):

لا تقولي أهواك . قد أيقظ الوعي فؤادي وانجاب عنه الخمارُ
بل هبيني عُمرِي المُردي على صدرك تبكي شبابه الأوطارُ
وغلالاته ، وأحلامه فيك ، طواها ، وكم طوى التيارُ
وأعيدي أمسي ، وقد كنت في أمسي دنياً ، يلفُّها إعصارُ

* * *

لا تقولي : أهواك ، لم يبق لي فيك خيالي ، وقد تحطَّم وهما
ذاك حب الزهور ، للجدول الحافل رِيًّا ، كي لا تجفَّ وتظما
منَّة لا أطيقها ، ونفاق عَفْثُهُ ، والهوى أَعَفُّ وأَسْمَى
هو رمز الفداء ، مفتقدا فيك عزاءً ، وما أسومك ظلما
وهو معنى الوفاء ترعاه أهواؤك اسماً ، وتجتويه مسمًى

ويقول ، في نموذج آخر يمثل نظرة أكثر قسوة ، وتشككا(٢):

ما الذي كان في ظلام مساريك وقد غابَ عن خُطاكِ الرقيبُ؟

ما الذي كان في لياليك ؟ إذ فا ضت حيننا .. والورد منك قريبُ؟

والحميّا..وأنت..والعود،والألحان نشوى..والصادح المحبوبُ؟

والضياء الحاني على المخدع اللا هت ، رفّت به الرؤى والطيوب؟

ليس سرا ما تكتمين ، فقد با ح به أمسك البغيض الكئيب

أمسك الخائن المشبع باللعنة ، عيناك رمز المثقوب

فابك ما شئت ، لن يطهرك الدمع ، ولو أنه دم ، ولهيب

كدّبت هذه الدموع فما أنت سوى أنت .. والشباب رطيب

أنت من نهجك الملوّث في قيد ، ونهج الغاوين قيد غلوب

لا تقولي: ظلمتني . كل ما فيك ، إذا خانني حجابي ، مريب

وعلى الرغم من اختلاف غايات الدارسين ، والمناهج التي دُرس بها أدب شحاتة . ولا سيما في الدراسات القديمة ، التي ظهرت قبل طباعة ديوانه الشعري ، أو التي ظهرت عقب طباعة ديوانه (٣) . إلا أن المحصلة الأخيرة ، كانت بقاء تلك الصورة طاغية على ما عداها (٤) .

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح ، هو : إذا كان لحمزة شحاتة موقفان من المرأة بشعره ، أولهما بالشرط الأول من حياته وكان فيه مهادنا لها بنماذج نادرة ، وثانيهما ذلك الموقف بشرط حياته الثاني الذي كانت فيه بنظره مرادفة للخطيئة ، بحسب ما أبدته فرضية إحدى الدراسات التي تناولته بتوسع وتخصص (٥) - السؤال هنا ، كيف يتم تفسير عودته وتراجعته عن ذلك الموقف ، بإحدى قصائده التي ظهرت بالشرط الثاني من حياته ، وظهرت بها أحاسيسه مخالفة ومغايرة لموقفه منها ؟ حيث يقول بتلك القصيدة (٦):

أُلهمتُ والحبُّ وخيَّ يوم لقياك رسالة الحسن فاضت من ثناياك

...

يا أنت يا ينبع أحلامي وملهمتي سر الجمال تجلى في مزايك

إن غياب العدد الأكبر من تواريخ القصائد بديوان شحاتة ، والنسبة الضعيفة التي تشكلها القصائد المؤرخة . التي لا يتجاوز عددها العشر ، من مجموع قصائد

الديوان البالغ عددها (١٢٥) قصيدة ، تقف تواريخها عند حدود العام ١٣٦٤هـ . والظهور المتأخر زمنيا للقصيدة السابقة ، كلها مؤشرات تبرهن نظريا ، على أن فرضية موقف شحاتة من المرأة المنقسم إلى شطرين ، فرضية غير مستقيمة . خصوصا في ضوء المستجدات التي يفتحها باب مراجعة ديوان شحاتة كاملا ، واستخلاص القصائد المتعلقة بالمرأة/الحبيبة منه . فمراجعة هذه القصائد تظهر ، أنها كانت مغيبّة تماما في تلك الدراسة وغيرها . حيث لم تأخذ في الحسبان من مجموع قصائد المرأة الحبيبة ومضامينها ، سوى القصائد التي تتماشى مع وجهات نظر كل دراسة . الأمر الذي كرس الصورة السائدة غير المتوازنة عن موقف شحاتة من المرأة . ناهيك عن إغفال السياق الرومانتيكي الذي ألقى بظلاله على تعامل الشعراء الرومانتيكيين إجمالا مع المرأة ، وتعامل حمزة شحاتة معها ، كما سيبدو من الفقرات التالية ، بهذا البحث .

المرأة/الخطيئة ، موقف لشحاتة ، أم منظور سابق :

لم تخل بعض المناهج الأدبية عند نشأتها ، من تأثر أطروحاتها التنظيرية بالأفكار الفلسفية السائدة . خاصة أن معظمها نشأ في أحضان الثقافة الأوربية ، التي شهدت صراعات في بواكير العصر الحديث ما بين رجال الدين ، ودعاة النهضة الأوربية الحديثة .

من هنا تبدو فكرة(الخطيئة والتفكير) وآدم والتفاحة ، أفكارا قديمة قدم البشرية ذاتها ، يصبح من السهل تطبيقها على أي نموذج شعري رومانتيكي تطرق للمرأة . وليس بالضرورة أن يكون هذا النموذج خالصا وخالصا بالتطبيق على رؤية شاعر بعينه . فمدخل التأويل ذاك ، الذي اجتلبه المنظور الرومانتيكي ، من فكرة دينية مسيحية ، لا يمثل خصوصية لدى إسقاطه على شاعر ، بمقدار ما يمثل مشتركات في مضامين فكرية عامة . وخاصة لدى حمزة شحاتة . تماما كما هو الحال في المناهج النقدية الحديثة التي تصلح للدرس والتطبيق على كل نموذج إبداعي ، بغض النظر عن مضمونه ، ومستواه الفني وبيئته .

لننظر في النموذجين التاليين ، ومن ثم نستنتج كيف تغدو تلك المشتركات المضمونية ، مجموعة من الفضاءات التعبيرية التي تنهل من مصب واحد :

النموذج الأول(٧) :

أخفتُ عن الدنيا هواها العتيدُ	من خشية العارِ
وباعتُ الحبَّ لشارٍ جديدٍ	لو أنه دارِ
والإثمُ خفاشٌ تحبُّ الظلامُ	طيورُ أسرارهُ
يقال عارٌ إن أدار الأنامُ	كأساً بأخبارهُ
وإن غفا السمعُ تمطى ونامُ	في طهرِ أوزارهُ
قل لرداء العرسِ أرخِ اللثامُ	وانظر إلى عارهُ

النموذج الثاني(٨):

مَلَقِيهِ بِحَسَنِكَ الْمَاجُورِ وادفعيه للانتقام الكبير

إِنَّ لِلْحَسَنِ يَا دَلِيلَةَ أَفْعَى كم سمعنا فحيحها في سرير

إن المتأمل في قاموس الأبيات السابقة سيجد أنه قد أتى قريباً ، إن لم يكن مماثلاً لقاموس حمزة شحاتة في العدد الأقل من قصائده التي خاطب بها المرأة بقسوة ، وورد منها نموذجان بموضع سابق من هذا البحث . وهذا يعطينا إشارة قوية ، عن وجود أمثلة لرؤية شحاتة لدى بعض الشعراء العرب ممن تمثلوا التيار الرومانتيكي ، بأدبنا العربي الحديث ؛ كما بدا في النموذجين السابقين: النموذج الأول للشاعر/محمود حسن إسماعيل ، والنموذج الثاني للشاعر/ إلياس أبي شبكة . وتلك من أظهر القرائن التي تدعم فرضية التناص في الرؤية الرومانتيكية المشتركة لمعظم شعراء هذا التيار . وهي الفرضية الأساسية ، لهذا البحث .

ومما يدعم هذه الفرضية ، على نحو أكثر ؛ أن حضور المرأة شكلاً ثَقَلًا ومرتكزاً تعبيرياً مهماً في الأدب الرومانتيكي ، بغض النظر عن ماهية الموقف منها سلباً أو إيجاباً . سواء لدى أولئك الذين غالوا في تمجيدها ، فصوروها الملاك الذي هبط من السماء ؛ أو لدى الذين صوروها على أنها شيطان يضل الناس ويغويهم(٩) . وهي الفكرة التي أشرنا في بداية هذا الطرح ، إلى كونها ناتجة عن تأثر بعض المناهج الأدبية فيها ، بجانب من الأفكار والتصورات الدينية للحياة . وانسحبت بالتالي على نتاج الرومانتيكيين الأدبي .

من هنا يبدو التأثير بالأدبين العربي والغربي أقرب إلى المنطق ؛ لتأويل موقف حمزة شحاتة . ويكون تبنيه لهذا المنظور ، على المستوى النظري ، أكثر انسجاماً مع المنظومة الفنية الرومانتيكية ، التي عاصرها ، سواء في موضوع المرأة ، أو غيره من الموضوعات الأخرى التي كثرت في شعر الرومانتيكيين ، وذلك في ضوء ما ستظهره الفقرة التالية .

الظواهر الرومانتيكية المشتركة بين شحاته وأقرانه من الشعراء :

تصويرُ حالاتِ اليأسِ والشكوى والحيرةِ والشكِّ ، والرغبةِ بالعزلة والانعتاقِ من الحياةِ وصخبها والصمتِ ، والتوقِ إلى الحياةِ المثاليةِ ، وتمنيِ حيواتِ الغابِ والمخلوقاتِ الأخرى، وردِّ الفعلِ إزاء فشلِ العلاقاتِ العاطفيةِ ، والصدمةِ في البشرِ ، بما فيهم الأصدقاء -كُلُّ هذه من الموضوعات التي كتب فيها كثيرا الشعراء السعوديون الذين تأثروا بالخصائص الرومانسية(١٠) .

وعندما نأخذ على سبيل المثال نماذج الشعارين (الزمخشري والقرشي) سنجد ما يعزز ذلك التقارب الشديد بين أغلب شعراء هذا الجيل ؛ بمن فيهم حمزة شحاته ، حتى في الدقيق من الأمنيات والأحلام والخلجات .

وإذا كانت أمنية حمزة شحاته التي أعطى بها حماره "كل صفات الخلق التام والجمال والذكاء ، والصمت والعزلة ، أي كل ما يريد حمزة لنفسه من صفات ، مقدما ذلك في أسلوب ساخر يفيض لوعة لاذعة" ، كما يقول د. عبد الله الغدامي مضيفاً : "أن في ذلك غضب على البشرية ، وهروب إلى الحيوانية ؛ الصمت ، العجمة ، التأمل " (١١) - إذا كانت تلك أمنية تمنّاها شحاته ، فهي لم تكن أمنيته وحده .

فهذه الأمنية . حياة الغاب ومخلوقاتِها . لا تعدو أن تكون أحد المضامين الرومانتيكية ، التي طرقها الشعراء ، بوصفها من المضامين المشتركة ، التي لا تمثل خصوصية ، سوى من الناحية الأسلوبية التي يختلف بها تناول الشاعر عن الآخر . فالشاعر طاهر زمخشري . على سبيل المثال . قد أفرد لهذه الأمنية عدداً من المقطوعات ، جعلها تحت عنوان: (في الغاب) منها قوله في مقطوعة: (١٢):

مُنَى نفسي بأن أحيا وحيدا أطوّف في مدى أحراش غابه
وأنعم في مراتعها بفيءٍ ظليل لاتجلله كآبه

وفي أجوائها راحت تهادى على أغصانها الجذلى سحابة
وتهمي بالرداذ أعْبُ منه فتنعش مهجتي الظمأى الصبابة
ومن قوله في مقطوعة ثانية(١٣):

ليتني أرجع للغاب فلا أجعل الشيطان في الدنيا رفيقي
أكل الأعشاب فيها ارتوي بالندى المسكوب في الغصن الوريقي
مرحاً أركض في أدغاله كل همي في غروب أوشروق

... أما معززات أمنية الصمت والعزلة ، فنجد أمثلتها أكثر من أن تحصى ، فقد
أكثر الشعراء الرومانتيكيون السعوديون من تجسيد حالات الشكوى واليأس . ومن
ذلك قول الزمخشري أيضاً(١٤):

على شفتي من الشكوى شظايا وزمجرة المواجه في الحنايا
يمزقني الشقاء على غرامٍ يلوعني ويسعدني شقاي
يطوّف بي الأسى جنح الليالي وقد حملت جراحي مقلّتي
وقوله في الحيرة والشك(١٥):

حيرة تملأ الحياة شكوكاً واضطراباً من هوله لن أفيقا
حيرة تنثر المخاوف حولي وتواري بين الضلوع حريقا
حيرة تلهب الجحيم بنفسي قلقاً في لظاه عشتُ غريقا

حسن القرشي تحدث عن الشعور ذاته ، شعور اليأس من الحياة لكون المرأة
، وعدم وفاء الأصدقاء ، جعلاه يفقد الأمل في الحياة ويزهد فيها. يقول(١٦):

يومي سألتك عن غدي واليأس ينضح في يدي
وجهامة المأساة تف جؤني بوجهٍ مريد
هل فيه صدقٌ للصدى ق وفيه زهر تودد ؟
أم أن فيه الشوك يُد ميني ويلوي مقصدي

وإذا كان الصمت عند شحاتة يرادف القطيعة ، فالقرشي وصل به الصمت إلى ضرب من الجنون (١٧):

كنت أهوى الصمت لكن سكوني

عاد يشجيني بأصداء الحنين

أيُّ همسٍ أيُّ قيثارٍ حنونٍ

عاصفٌ بي عند صمتي كالجنون

والشاعر ناصر أبو حيمد من فرط اليأس يخاطب الموت الذي يصفه بالعملاق المخلص من الحياة (١٨):

لم يبق عندي أملٌ لم يطوه اليأسُ

يا أيها العملاقُ قد ضحك الرمسُ

الناس حولي جثثٌ لموتها عرسُ

أعبر بنا الآفاقُ قد ضاقت النفسُ

ولذلك فما تركه الشعراء في هذه المواقف والحالات الذاتية الوجدانية ، لا تمثل مقومات تخص شاعرا ، دون آخر ، بل هي حالة عامة تمثلها جميع الشعراء السعوديين المعاصرين لحمزة شحاتة ، بما في ذلك موضوع المرأة .

الأوجه الأخرى لعلاقة حمزة شحاتة بالمرأة :

إن القارئ لنماذج شحاتة هنا ، سيجد مفارقة واضحة للمضامين التي قُدِّمَتْ سابقا ، من شعره بالمرأة . حيث تبدي الأبيات التالية بهذه الفقرة معجما ومضامين مختلفة كلية ، تظهر أوجها جديدة في موقف شحاتة وعلاقته بالمرأة ، وتضفي التنوع الذي يشكل موقفه الشمولي منها . وأول هذه الأوجه التي يمكن اكتشافها :

القيمة المعنوية الإنسانية للمرأة في تصور شحاتة :

يقول (١٩):

وترامى الخيال فيك إلى أعلى مجالاته ، فألفاكِ أعلى
خلقا صافيا وخلقاً قويما وجمالا يفيض طهرا ونبلا
ضربت حولك القلوب نطقاً أنتِ فيه روحُ سما فتعلى
ويقول في قصيدة أخرى (٢٠):

أعطيتني ما لست أطمع فيه بعد إلى مزيد
أعطيتني ثقتي بنبلك ، بين وعدك والوعيدُ

تبدو أهمية الأبيات السابقة في أنها تكشف عن عمق مكانة المرأة لدى شحاتة ، وترسخها في وجدانه . حينما لا يقف بها عند الجمال الشكلي ، بل يتجاوزها إلى الجمال المعنوي الروحي . وهي المكانة التي سنجد المرأة ذاتها تتشدها ؛ نظرا لأنها تبقى المرأة بهذا المستوى من الجمال الخالد . ولذلك وصفه شحاتة ، بأنه أسمى ما يصبو إليه الخيال من تصوير للمرأة .

وإذا كان هذا الوجه قد بين مدى تغلغل المرأة المحبوبة في وجدان شحاتة ، فالوجه التالي لا يقل أهمية عن سابقه ، في بيان ما حفلت به رحلة الشاعر العاطفية من تعدد وتنوع يضيفان الملامح الأساسية المهمة ، إلى الإطار الشمولي لموقفه من المرأة المحبوبة ، ويزيحان الوجه المكرس عن موقفه .

تجربة الحب العميقة الثرية التي عاشها شحاتة:

إذا كانت تجارب الشعراء الرومانتيكيين قد جَلَّت . لدى كل منهم . عن حالات الزخم والتنوع الذي مرت به تجاربهم في الحب ، بتجلياتها العاطفية المختلفة مدًا وجزرًا - فإن تجربة شحاتة أيضا قد حفلت بالكشف عن تلك العوالم العاطفية الثرية . حيث التفاصيل التي ليس بمقدور شاعر أن يخلدها ، دون مروره بتجارب حياتية واقعية ، مهما كانت مقدرته التخيلية ، أو مهارته في محاكاة تجارب الآخرين .

ويمكن لنا أن نستشف تلك العوالم المتنوعة لمعايشة تجربة الحب ، من خلال مجموعتين من القصائد صور بها شحاتة الاختلاف الكبير بين حياتين .

حياة لحظات الحب التي عاشها . وكانت بمثابة الحياة الحية النابضة بالحب في كل الجنبات ، ونجدها في مجموعة القصائد التي سنصفها (نموذج قصائد الحب) التي تجسد رؤاها قصيدة(أنت)(٢١) .

والحياة الثانية المقابلة للأولى التي صور بها لحظات فراغ حياته من الحب ، ورصد بها سلسلة من دوائر التذكر والانتظار الذي تركته الحبيبة ؛ ونجدها في مجموعة قصائده التي سنصفها (نموذج الاعتذاريات) التي تجسد رؤاها قصيدة (القلب الخائف)(٢٢) .

يقول في تجسيد الحالة الأولى بقصيدة (رحلة بلا رفيق)(٢٣):

سعادُ يا أنشودة الربيع

يا أحلامه النشوى بصبوة الجمال

ويا ضياء الفجرِ

يا دعاءهُ الحنونَ ، فيض بالفتون

من دنانه المضمّخات بالطيوب ، رشّت الدروب

في تهوية الزهورِ ، تحوم حولها الطيور

.....

وفي السياق ذاته : قصيدة (أنت) التي تجسد قصائد هذا النموذج ، ومنها :

أنت التي أيقظت قلبي
 من عميق سباته
 وسطعت كالفجر المورد
 في دجى ظلماته
 ودفعت تيار الشعور
 فذب في خفقاته
 ونشرت آلاف الزهور
 على حقول مواته
 وأزحت أستار الضباب
 غفا على صبواته
 وكسرت كل قيوده
 وهديته بعد الضياع
 فإذا بأحلام الشباب
 تضيء في قسماته
 وتلوح في خطواته
 وتفيض من عزماته

أما النموذج الثاني الذي يجسد الحالة الثانية ، حالة الفراغ ، الذي تركته
 المحبوبة بحياته ، فنجدته يتمثل قي قصيدة (القلب الخائف):

قلبي يحدثني ، ويا لمرارة الذكرى ، بأنك لن تعودني
 فأحسّ بالأحلام والأطياف تهجرني ، ويتبعها وجودي
 وأرى الحياة . بغير أن ألقاك . دون سواك . ضيقة الحدود

والعيش قبل هواك سجنًا لم يخلصني ، سوى عينيك فيه من قيودي
إلى أن يقول بها :

والصمت يا سمراء بعدك قمة المأساة في قلبي الكئيب
المقعد الخالي يسألني وأسأله متى يأتي حبيبي؟
وكتابك الملقى يفيض أساه بالملل الرتيب
كم نام بين يديك مخموراً على الحلم الطروب ...

وتبدو التجربة الحية من صور القصائد الثلاث منعكسةً من خلال استحضار
التفاصيل الدقيقة بين الطرفين ، سواء من خلال خلع سمات الأنسنة والشعور على
كل ما حوله (الكتاب ، والمقعد) كما في القصيدة السابقة . أو من خلال الصور
العديدة . بالقصيدتين الأولى والثانية . التي جسد تدفق مجازاتها ، الأشكال المتعددة
لدبيب الحياة في روحه ، والعبق المختلف لكل صورة من صور الحياة العديدة التي
جدها ، إما الشعور بالحب ؛ وإما الشعور بالفراغ الذي خلفه خلو حياة الشاعر من
الحب ، وافتقاده ، وحنينه لوجود الحبيبة .

وهو الأمر الذي يتسنى للقارئ ملاحظته عندما يقرأ المزيد من القصائد التي
تتدرج تحت أي من الحالتين .

فمما يندرج تحت قصائد النموذج الأول/ حالات الحب : تلك القصائد التي
راح يخاطب فيها نفسه ، ويناجيها عن لسان المحبوبة ، في لحظات تبين المقدار
الذي التبست عليه التجربة فيها بوجدانه ؛ واختلطت بها لحظات واقعه بحلمه .
حينما كتب أكثر من قصيدة ، يتخيل فيها الحبيبة ، وقد وقفت تتاجيه ، بلسانه بما
يشاء من أمنيات ، وذلك في قصائد (لَمْ أهواك؟ / ووداع / ورسالة)(٢٤) والأخيرة لا
تبتعد عن أجواء سابقتيها ، التي تتداخل فيها لحظات الشاعر ، فيستذكر لحظات
الحب ، ويشتعلم لمجرد مرأى خط الحبيبة برسالة .

ويمكن أن ندرج تحت النموذج ذاته قصائد: (سمراء / وقصيدة لم تكتمل /
ومأساة / ولقاء في لقاء / وحبيبتني جنان / وضلال في هدى)(٢٥).

أما قصائد النموذج الثاني (الاعتذاريات) التي صور فيها حياته بعدما غادرها الحب ، فإلى جانب قصيدة (القلب الخائف) التي سبق الاستشهاد بها ؛ يمكننا أن ندرج مجموعة من القصائد الأخرى هي: (لا تصول الجياد حيث تصول / و[قصيدة] إنما / وكفارة / وفراش وجليد / وعندما تتكلم الجراح / وإيزيس / وكبرياء)(٢٦). ومعظم هذه القصائد كان يستعيد فيها مقدارا كبيرا من ذكرياته عن لحظات الحب ، وصورا معبرة عن مشاعر الندم والحسرة والتفريط ، وحيلولة الغضب والكبرياء دون استمرار علاقة الحب ، واعتذاره للحبيبة ، وأمنيته بعودتها ، أو يأسه من عودة تلك اللحظات .

إن مجموع قصائد النموذجين التي تقارب العشرين قصيدة تعطي فكرة واضحة ، عن حقيقة موقف شحاتة من المرأة ، وتقدم خلاصة مغايرة ومختلفة ، ليست بالقليلة التي تمثل موقفاً نادراً عند حمزة شحاتة ، قد يركن إليه ، في لحظة من لحظات السكينة المبالغية ؛ بحسب ما ورد في كتاب (الخطيئة والتكفير)(٢٧) ، بل إن تلك القصائد ، تعطي انطبعا يجلو النظرة السلبية عن موقف شحاتة من المرأة ، ويضعها في سياقها الصحيح المتوازن .

وهو ما سعى إليه هذا البحث الذي ختم فقراته بإيراد ذلك المقدار من القصائد الخاصة بالمرأة المحبوبة ، كما جسدها مشاعر شحاتة وكلماته . سواء من حيث الكم ، كما تبين من مجموع القصائد ، أو من حيث مضامينها .

وبهذا تكون هذه الفقرة من البحث قد جاءت بيانا تطبيقيا يعزز فرضية البحث التي طرحها بأوله ، ملتصقا تأكيدها من خلال نماذج شحاتة . فيما سعت الفقرات السابقة لتأكيد الفرضية من خلال مقارنة نماذج غيره من الرومانتيكين ، لتكون المحصلة النهائية للبحث هي توافق نظرة شحاتة للمرأة مع نظرات معاصريه من الشعراء المتأثرين بالتيار الرومانتيكي . الأمر الذي كشف شيئا مهما وضروريا من حقيقة موقف شحاتة من المرأة إجمالاً ، من طريق بيان موقفه في سياقه المنطقي .

ولربما كان الموقف على حقيقته ، موقف شحاتة من المرأة الحبيبة تجسده حالته الشعورية التي ظلت تتراوح بين حالتين عبرت عنهما قصيدته (كفارة) و(كبرياء) بعنوانيهما ، ومضمونيهما .

موقف شحاتة ، الحائر المتردد بين الإقدام والإدبار ، بين الكبرياء ، وبين الاعتراف والاعتذار بلحظة يكون الحب فيها بحاجة لتتاسي الكبرياء . لكنها تظل طبيعة إنسانية ، ومواقف لا تختلف عن مواقف كثير من حالات الحب التي لا يكتب لا النهايات المأمولة .

ولئن كانت مفردتا(الخطيئة والتكفير) ، قد اتخذتا مفتاحاً لتأويل موقف شحاتة . فذلك لا يعني أن(المرأة هي الخطيئة) في تصور حمزة شحاتة . وإنما لأن الخطيئة ظلت تكمن في شعوره الدائم بالعجز ، عند لحظة ما ، من لحظات عمر الحب ، عن تقديم التنازل ؛ الذي يبقى على ماء العلاقة مستمراً . هذا العجز الذي يستظل لدى الشاعر دائماً ، بمظلة الموقف / الكبرياء ؛ ليكتشف أنه بمواقف عجزه المتكررة تلك ؛ إنما يكرس هو خطيئته المستمرة في حق الحب ، والمرأة ، التي يكتشف في كل مرة يتجدد فيها الحب ، بوقت متأخر ، وعقب فوات الأوان ، أن الخطيئة ليست في المرأة . وحالما يراجع نفسه ، يبدأ بحلقة جديدة من سلسلة اعتذارياته عن لحظة العجز تلك ، حتى في لحظات ضعفه الثانية التي يُقدّم فيها على صياغة (اعتذارياته) ، يمنعه كبرياؤه من تحمل الخطأ وحده ، فيشارك المرأة معه في الخطأ ، وحائل الكبرياء .

"فلا أنا قد خطوت إليك معتذرا ، ولا أنتِ

لماذا ؟ أنت لا تدرين ، ومثلك كنت لا أدري

تعالينا فضاع العذر بين السخط والكبر

....

كلانا صابِرَ المأساة سامِرَ حزنه فيها

تمزق صدره الآم ، تطويه ويطويها
 نسيت أنا فهل تنسين ما فعلت بنا الأوهام
 فعاطيني كؤوس رضاك ، زف عبيرها الألم
 وحسبي فيك ما لاقيت من حزن ومن حرمان
 ظلمتك ، فانتصفتِ وها .. أنا أَتَلَمَّسُ الغفرانُ" (٢٨).
 من قصيدة كبرياء ..

والله الموفق .

الملحق :

نماذج لقصائد حمزة شحاتة التي تمثل موقفه السلبي في علاقته بالمرأة :

قصيدة (نهاية) (٢٩):

وأفقت من حلمي الجميل
 على الحقيقة
 وهي كابوس ثقيل..
 وتسلت من حاضري
 أوهام ماضيك الحفيل..
 وفرغت من صب الخيال
 فلا اشتياق ... ولا غليل
 وطرحت أعباء الشعور
 بكل ما قد كان منك ،
 وما يكون
 وخلصت من تلك السفاسف والقشور
 ومن فجاءات الجنون
 ونعمت بعدك بالسكون
 فلا صراع ولا دموع ولا ظنون ...
 لا تطرقي بابي فقد أوصدته
 وأمنت تائرة الرياح ،
 ووهبت عمري للطبيعة
 بين ليلي والصباح ..
 وهربت من أسر الحياة
 ورحت منطلق الجناح

قصيدة (عودة) (٣٠):

ما الذي كان في ظلام مساريك وقد غاب عن خطاك الرقيب؟
 ما الذي كان في لياليك ؟ إذ فا ضت حيننا .. والورد منك قريب؟
 والحميا.. وأنت.. والعود، والألحان نشوى.. والصادح المحبوب؟
 والضياء الحاني على المخدع اللا هث ، رقت به الرؤى والطيوب؟
 ليس سرا ما تكتمين ، فقد با ح به أمسك البغيض الكئيب
 أمسك الخائن المشبع باللعنة ، عيناك رمزه المثقوب
 فابك ما شئت ، لن يطهرك الدمع ، ولو أنه دم ، ولهيب
 كذبت هذه الدموع فما أنت سوى أنت .. والشباب رطيب
 أنت من نهجك الملوث في قيد ، ونهج الغاوين قيد غلوب
 لا تقولي: ظلمتني . كل ما فيك ، إذا خانني حجابي ، مريب

قصيدة (لا تقولي أهواك) (٣١) :

لا تقولي أهواك . قد أيقظ الوعي فؤادي وانجاب عنه الخمار
 بل هبيني عُمرِي المُردي على صدرك تبكي شبابه الأوطار
 وعلا لاته ، وأحلامه فيك ، طواها ، وكم طوى التيسار
 وأعيدي أمسي ، وقد كنت في أمسي دنيا ، يلفها إعصار

* * *

لاتقولي : أهواك ، لم يبق لي فيك خيالي ، وقد تحطّم وهما
 ذاك حب الزهور ، للجدول الحافل ريًا ، كيلا تجفّ وتنظما
 منة لا أطيقها ، ونفاق عفته ، والهوى أعف وأسمى
 هو رمز الفداء ، مفتقدا فيك عزاءً ، وما أسومك ظلما

وهو معنى الوفاء ترعاه أهواؤك اسماً ، وتجتويه مسمًى قصيدة (محال)(٣٢):

عاش المحال مرةً .. ومات

ولن يعود ميتً إلى الحياة

حاولت قبل أن تحاولي

وعدت صامتاً

وليس من جديد

لن تصنعي المحال

لن تصنعي النار من الرماد

قد تمسحين أدمعي

وتطلقين بسمتي من سجنها

من قيدها العتيد

وقد تحييين على كل سؤال

وتملأين الأفق السعيد

بكل ما في الكون من أعياد

لكننا .. أنا . وأنتِ

لن نعيد ماضى

لن نصنع المحال

لأنه اختفى .. ومات .. واندثر ، لأنه خيال ..

الهوامش والإحالات :

(١) ديوان حمزة شحاتة / ط (١) ١٤٠٨ هـ / دار الأصفهاني ، مكتبة تهامة جدة : قصيدة (لا تقولي أهواك) ص (٤٩) .

(٢) السابق : قصيدة: (عودة) ص (٩٥) .

(٣) من أمثلة اختلاف مناهج الباحثين . تطبيق الرومانتيكية في دراسة ، وتطبيق مناهج البنيوية وما بعدها من المناهج النقدية . وقد طبع ديوان شحاتة أول مرة عام ١٤٠٧ هـ ، واشتمل على ١٢٥ قصيدة ومقطوعة ، مقسمة على أربعة أبواب هي : الغزل ، والوجدانيات ، والملاحم ، والمنوعات . وأعيد طبعه مؤخراً ، مع كتابيه النثرين : (رفات عقل) ، و(الرجولة عماد الخلق الفاضل) ضمن إصدارات نادي جدة الأدبي ١٤٢٧ هـ دون إضافات جديدة ، على الطبعة الأولى للديوان .

ومن الدراسات التي ظهرت قبل طباعة ديوان شحاتة ، دراسة (الخطيئة والتكفير ، من البنيوية إلى التشريحية ، قراءة في نموذج إنساني معاصر) للدكتور عبد الله الغدامي ، نادي جدة الأدبي ١٤٠٥ هـ . وقد طبقت الدراسة المناهج النقدية البنيوية وما بعدها على أدب شحاتة ، وانقسمت إلى قسمين : أولهما نظري عرض فيه النظريات النقدية ، وثانيهما تطبيقي مطبق على أدب شحاتة الشعري والنثري وسيرته الذاتية ، وقد انتهت الدراسة إلى فرضية سداسية هي (آدم ، حواء ، الخطيئة التكفير ، التفاحة إبليس) ، وأنه كان لشحاتة موقف من الحياة ، مرتكز الأساسي موقفه من المرأة التي رآها قرينة للخطيئة ، واستشهد الدكتور الغدامي بالنماذج التي تركز لوجهة النظر المشار إليها من موقف شحاتة السلبي من المرأة ، واصفاً النماذج "القليلة جداً" المخالفة لموقف شحاتة الذي استنتجه الباحث بالنادرة جداً .

ومن الدراسات التي ظهرت بعد طباعة ديوان شحاتة دراسة (الاتجاه الابتداعي في الشعر السعودي الحديث ، إلى نهاية التسعينيات الهجرية) ، إعداد ، محمد بن حمود حبيبي ، إصدارات المهرجان الوطني للتراث والثقافة الجنادرية ، الرياض ١٤١٧ هـ (جزءان) ، وفي هذه الدراسة . التي ركزت على التيار الرومانتيكي . أظهر الباحث في حديثة بالجزء الأول ، بفصل: (التجربة الشعرية من خلال المرأة وعاطفة الحب) ، اختلاف موقف الشعراء ما بين تمجيد المرأة ، والتوسط في النظرة إليها لدى آخرين ، في حين يظهر موقف شحاتة عبر النماذج التي تركز قسوة تعامل شحاتة مع المرأة ، ولم يقدم الباحث أية نماذج تظهر اعتدال ، أو توازن موقف شحاتة من المرأة .

(٤) ظهرت مجموعة من الدراسات مؤخراً في ملتقى قراءة النص السادس بجدة ، المنعقد بنادي جدة الأدبي في الفترة من ١٧.١٣ مارس/ ٢٠٠٦م وظهر في تلك الدراسات إنصاف لأدب شحاتة

، لكن أياً من تلك الأبحاث المقدمة التي تجاوزت (الثلاثين) لم يتطرق لموقف شحاتة من المرأة في شعره ، باستثناء بحثين تطرقا للأنوثة ، والأمومة في أدبه النثري وسيرته الذاتية . علماً أن معظم الأبحاث انصب على أدبه النثري ، ولا سيما محاضراته (الرجولة عماد الخلق الفاضل) فيما تعلق عدد الأقل من الأبحاث بكتاباته الأخرى ، وشعره. وتعلقت الأبحاث القليلة في شعره بالظواهر الأسلوبية والموسيقية والبلاغية .

(٥) ذهب د. الغدامي إلى أن لحمزة شحاتة موقفين من المرأة ، الأول موقفه قبل ما يصطلح له مرحلة وعيه بالنموذج نموذج الخطيئة والتكفير وفيه كان متردداً في حسم موقفه من المرأة ، وكان ذلك بالشر الأول من حياته قبل سفره واعتزاله الحياة والناس بمصر ، والموقف الثاني ، في إقامته بمصر وفيه حسم موقفه من المرأة وأغلق قلبه أمام إنشاء أية علاقة مجدداً معها ينظر الخطيئة والتكفير ص (١٩٣.١٩١) .

(٦) ديوان شحاتة ص (٥٥) .

(٧) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر / د/ عبد القادر القط/ ط (٢) / دار النهضة العربية . بيروت ١٩٨١ م ، ص (٢٩٥) .

(٨) السابق نفسه .

(٩) الرومانتيكية ، محمد غنيمي هلال ، دار الثقافة ، بيروت (د.ت) (١٩٠/١٩١) .

(١٠) ينظر للتوسع في هذه الخصائص ، "الاتجاه الابتداعي ، في الشعر السعودي الحديث" (مرجع سابق) ج ١ ص (١٠. ١٩)

(١١) الخطيئة والتكفير (مرجع سابق) ص (٢٣٢) .

(١٢) مجموعة النيل / طاهر زمخشري / الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ مكتبة تهامة / جدة / الديوان السادس/ في الغاب /مقطوعة ، (منى نفسي) ص (٧٠١) .

(١٣) السابق / الديوان الثاني / زفرات / قصيدة ليتي في الغاب ص (١٤٤) وينظر أيضاً : الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية / د/ عبد الله الحامد/ الطبعة الثانية / دار الكتاب السعودي / الرياض/ ص (٢٤٦) علماً أنني في النصين السابقين اعتمدت على الأصل . حيث لم ترد بعض الأبيات صحيحة في المصدر المشار إليه .

(١٤) مجموعة الخضراء / طاهر زمخشري/ ط (١) ١٤٠٢ هـ /مكتبة تهامة . جدة / ديوان (الأفق الأخضر) ص (٥٧) .

(١٥) مجموعة النيل / طاهر زمخشري / الديوان الأول/ قصائد ومقطوعات /ص (٤٤) .

- (١٦) ديوان القرشي /حسن عبد الله القرشي / الطبعة الثانية ١٩٧٩م دار العودة / بيروت / المجلد الثاني / ديوان (بحيرة العطش) ص (٣٩٢/٣٩٣) .
- (١٧) السابق : ديوان (ألحان منتحرة) قصيدة (ضياع) ص (١٢٢) .
- (١٨) ديوان / قلق / ناصر بوحيمد/دار الكتاب العربي . بيروت (بلا تاريخ) ص (٨٧) .
- (١٩) ديوان شحاتة : قصيدة : الربيع الدائم ص(٧٩) .
- (٢٠) السابق: قصيدة: القلب الخائف(٨١) .
- (٢١) السابق : قصيدة : أنت (٩٠/٩١) .
- (٢٢) السابق : قصيدة : القلب الخائف ، ص(٨٠) .
- (٢٣) السابق:قصيدة (رحلة بلا رفيق) ص(١٠٢)
- (٢٤) السابق: قصيدة:(لم أهواك)ص٣٦ ، وقصيدة(وداع) ص٤١/٤٣ ، وقصيدة (رسالة)ص(٧٨) .
- (٢٥) السابق: قصيدة: (سمراء) ص٨٤ ، وقصيدة(قصيدة لم تكتمل) ص ٨٣ ، وقصيدة(مأساة) ص٩٢ ، وقصيدة(لقاء في لقاء) ص ١١٥ ، وقصيدة(حبيبيتي جنان) ص١٢٤ ، وقصيدة(ضلال في هدى) ص ١٣٥ .
- (٢٦) السابق: قصيدة:(لا تصول الجياد حيث تصول ص٤٣ ، وقصيدة (إنما) ص٧٦ ، وقصيدة (كفارة) ص٨٩ ، وقصيدة (فراش وجليد) ص ١٢٠ ، وقصيدة (عندما تتكلم الجراح) ص ١٢٥ ، وقصيدة (إيزيس) ص ١٢٧ ، وقصيدة (كبرياء) ص١٣٠ .
- (٢٧) الخطيئة والتكفير(مرجع سابق) ، ص (١٩١-١٩٣) . وينظر كلا من الهوامش رقم : (٣)(٤) من هذا البحث .
- (٢٨) ديوان حمزة شحاتة ص ١٣٠ .
- (٢٩) السابق: قصيدة(صحوة)ص (٩٩/١٠٠) .
- (٣٠) السابق: قصيدة ، (عودة) ص(٩٥) .
- (٣١) السابق: قصيدة (لاتقولني أهواك) ص (٤٩) .
- (٣٢)السابق: قصيدة (محال) ، ص(١١٨/١١٩) .

